صفحة من تاريخ لبنان

تبرير النصارى

مما نسب اليهم في حوادث سنة ١٨٦٠

نشرها حضرة الاب لويس بلّيل اللبناني

تمهيد

انه في اثناء بحثي في اوراق دير سيدة لويزة ، في سنة ١٩٠٨ للاستعانة بمحتوياتها على وضع تاريخ الرهبانية اللبنانية ، عثرت على كتابة عنوانها « تبرير النصارى » من تهمة حوادث سنة الستين المحزنة ، بدون امضاء . فطالعتها باسمان وترو ، ومع انها خارجة عن موضوعي ، فلم اهمل نسخها . لغاية لم اشأ نشرها لاسباب قد زالت الآن . وما المقصود من نشرها الا العبرة والذكرى . الا اني بمطالعتي « المحررات السياسية » للمرحومين الشهيدين الشيخين فيليب وفريد الخازن ، قرأت فيها ان الكولونل روز الانكليزي ، ومستشاري دولة انكلترة وخورشيد باشا والي ايالة صيدا (١ قد اتهموا المطران طوبيا عون ، مطران بيروت الماروني ، انه هو نفسه سبب حوادث سنة الستين المؤلمة . والظاهر ان التهمة قد شاعت في تلك الايام ، فتألفت هذه الكتابة دفاعاً عن المطران طوبيا وتكذيباً لمفتريها . وبهذا الدفاع وقعت التهمة ثابتةً على زعماء الطائفة الدروزية ، وعلى رجال الحكومة العثمانية وعساكرها

ان عنوان الكتابة ونسق كتابتها يفيد على الظاهر انها لتبرير المطران طوبيا ، وان القصد منها تبرير النصارى من تبعة تلك الحوادث المشؤومة . ولكن يرجح القارئ المتأمل ان مؤلفها هو المطران الموما اليه ، او انها على الاقل قد تألفت باشاورته ، وغايتها تبريره من الوصمة التي الحقت به ، وتبرير النصارى معه ، وكان الكولونل روز ومستشاري دولة انكلترة وخورشيد باشا وخلافهم ممن ورد ذكرهم اعلاه لم يتهموا كل النصارى وبالخصوص المارونية ، بل حصروا تهمتهم بالمطران طوبيا واحياناً بالاكليروس الماروني

ولما كان قارئ ما جاء في المحررات السياسية المرقومة قد يتداخله الريب بشأن مسلك المطران طوبيا والاكليروس الماروني ويحمله على تصديق تلك التهم ، رأيت ان انشر هذه الكتابة كصفحة تاريخية اخدم بها الحقيقة التي قد تشوهها اغراض ومقاصد سياسية

---

١) مجلد ٢ ، صفحة ١٦

ثم ان ابناء الوطن يستفيدون منها اعتبارات مفيدة ترشدهم الى سواء السبيل اذ يرون اننا بتهوّرنا في تلك الحوادث المحزنة المشؤومة قد خدمنا مطامع ومآرب رجال حكومة تلك الايام العاملة بمبدأ «فرّق تسُدْ» فجلبنا على نفوسنا وعلى بلادنا وقومياتنا الخراب والويلات وحزازات شقينا بها ولا نزال حتى الآن نجني من ثمارها المرّة . . . وقد اوردت الدفاع بحرفه لاحفظ له قوته

الاب لويس بلّيبل اللبناني

تبرير النصارى

انه قد تسامع انه في احدى المفاوضات التي صارت في ديوان لوندرا العالي ان احد الوزرا العظام تكلم بصراحة : ان انشا الملحمة الكبرى التي صارت في سورية على النصارى كان من الموارنة بتحريك اكليرسهم واخصهم مطران بيروت (طوبيا عون) (١ فيا للعجب من الغرض البشري كيف انه ينتصر على صاحبه ولو مهما كان حكيماً وشريفاً ويستقيده بهذا المقدار حتى الى تصديق من يريد ان يشجب البري ويبرر المجرم بجرائم فظيعة كما ترى في هذا الموضوع الذي شهرته اعطت البرهانات الساطعة بان المتهومين المومى اليهم ليس فقط هم ابرياء من هذه التهمة الشنيعة بل انهم مظلومين ومجني عليهم جناية فظيعة فكان الخليق بهذا الرجل الشريف الحكيم ان يرفض قبول تهمة مثل هذه كاذبة ويوافق الرجل الشريف الصادق المستر نابيه (٢ الذي حكم بصراحة ان انكلترة هي بالوجه الاول علّة هذه الملاحم عندما في سنة ١٨٤٠ انفشت من الدولة العثمانيّة فاستخلصت سورية من يد الحكومة المصرية العادلة وقسمت حكومة جبل لبنان الى قائمقاميتين ودفعت المسيحيين المختلطين واخصهم الموارنة غنيمةً للدروز وسلّمت سورية وبالتالي قدمت نصاراها ضحايا للدولة العثمانية فكانت هذه الدولة هي العلّة الثانية لهذه الملاحم المريعة . وهكذا كان هتاف غالب اصوات شعب انكلترة بخلاف ما تكلّم فيه ضد الوارنة الوزير الجليل المشار اليه أخذ عن ذوي غرض ذاتي . ولكي نقدم للنصارى البراهين الساطعة على ذلك فنقول:

---

١) المحررات السياسية : المجلد ٢ ، صفحة ٢٩١

٢) المحررات : المجلد ٢ ، صفحة ٢٨٩

انه ما عدا الفتك الرزيع الذي صار في النصارى في لبنان سنة ١٨٤١ وسنة ١٨٤٥ بانفشاش الدولة الاولى (انكلترة) ومساعدة ودسائس الدولة الثانية (تركية) عندما سمحت للدروز بمحاربة الامير بشير قاسم الشهابي وخلعه من حكومة جبل لبنان مع كونها هي قدمته لهذه الحكومة بدل تعلقه بها ولم يكن له جنحة سوى مضادته للدروز اصدقائها الجدد (١ فان الدروز من ذلك الحين الى الآن قد استعبدوا النصارى واسترقوهم استرقاقاً لا نظير له . الّا ان كان في زمان فرعون مصر . لانهم اي الدروز وعلى الخصوص مشايخهم اصحاب المأمورية واخصهم سعيد بك جنبلاط قد ارتكبوا ضد النصارى جميع المنكرات من قتل نفوس وسبي حريم (عرض) ظاهر على وجه الغصب وسلب اموال وموجودات وضبط املاك باوقات عديدة ومتفرقة دون انقطاع بنوع لا يحصى وكل ذلك كان يتعرض بوقته لجانب الحكومة باطلاع قونسلاتو انكلترة وما كانت تحصل ادنى مساعدة لاباستحصال الماضي ولا بالمنع عن المستقبل

* * *

الّا انهُ في ١٤ آب سنة ١٨٥٩ اكمن الدروز كميناً في قرية بيت مري لاجل سيب جزني تسبب منهم فاثاروا حرباً ضد نصاراها بعدان كان السيد طوبيا مطران بيروت المجتي عليه افرغ كل جهده بمنع هذه المحاربة واجتمع بالدروز مرتين وارتشوا منه ان يأخذ اليهم الغريم الواقع منه السبب لتصير المصالحة ويصير منع الحرب ولما اتم السيد المومى اليه اخذ الغريم فعند قرب وصوله اليهم فتحوا الحرب في وجهه وكاد الرصاص ان يصيبه فيقتل غدراً . وعمل سيادته هذا اقرّ به الدروز انفسهم امام الحكومة وامام قناصل الدول الفخيمة وحاز المدحة واسمه الشريف دائماً ازداد شرفاً جديداً . ولما بسبب هذا الحرب ارتكب الشيخ يوسف عبدالملك احد مقاطعجية جبة الدروز جهلاً ما سبقه اليه احد اذ انه في ثاني يوم من هذه الحرب جمع دروز مقاطعته وسطى بهم على بعض قرى النصارى وبعض اديرة في قائمقامية النصارى وشتت شملها ونهبها وحرقها جميعها ومزّق الايقونات ودنّس الاقداس . عند ذلك تحركت ركاب مشير الايالة (صيدا) خورشيد باشا بالقيام

١) المحررات : مجلد ١ ، صفحة ٧٣٠

مع العسكر الى خان الدبرج مظهراً قصده بربط يوسف عبد الملك واجرا قانون الجزا بحقه لاستئصال كامل حقوق النصارى وثمن محروقاتهم . الّا انه بعد ان وصل الى المركز المذكور واجتمع بالقائمقام ومقاطعجية جبة الدروز تغير قصده هذا وقبل عنده يوسف عبد الملك بكل اكرام وبعد ذلك انعم عليهِ بوظيفة محافظ طريق الشام وعيّن تحت يده جانب من الخيالة وضمّد جروحات هذهِ الفتنة على فساد ولم يستحصل من حقوق النصارى شيئاً يذكر . فحضر عند ذلك المطران طوبيا المومى اليهِ ادى دولتهِ وعرض لديهِ دفعات متعددة ان الصمت عن قصاص المذنبين مثل يوسف عبد الملك تقودهم ومن مثلهم الى الطمع بارتكاب حركات فاسدة اعظم مما صار بنوع يوصل الى سلب راحة الاهالي وازعاج الحكومة من هذا السبب . فالوالي ما اعطى التفاتاً الى هذه النصيحة العادلة بل اظهر جفاء الى السيد المشار اليهِ فالتزم ان يظهر فكره هذا الى جناب قنصل جنرال دولة فرنسة وقنصل جنرال دولة اوستريا الفخيمتين وكلاهما صادقا سيادته على رأيه وتكلما مع الوالي عند ذلك بشدة وكلية . اما هو فاحتال عليهما بالوعود الفارغة وازداد حنقه على السيد المشار اليهِ لانه كشف له ما سيصير قبل وقتهِ كما صار ذلك بالفعل دون ابطاء لانه في شهر تشرين من السنة المذكورة توجه خطار بك العماد احد مقاطعجية جبة الدروز الى جهات حاصبيا واقام هناك عدة اشهر يحرّك دروزها القيام على النصارى . اما هم اي الدروز المشار اليهم لم يتأخروا عن ان يجاوبوا مقصده هذا الردي بل اثاروا حالاً حرباً ضد اولئك النصارى الّا انهم لم ينجحوا لان الحكومة لم تساعدهم بحينهِ مساعدة ظاهرة كما فعلت ذلك فيما بعد حيث لم تكن عقدت بعد تلك الرابطة التي عقدتها فيما بعد في اوائل شهر آذار سنة ١٨٦٠ لانه في الوقت عقد احمد باشا سر عسكر اسبق جمعية سرية في الشام مؤلفة منه ومن طاهر باشا فريق العساكر ومن ارباب دولته العسكرية ومن بعض ذوات مسلمي الشام وكان موضوع الاجتماع ارتباط المسلمين مع الدروز وباقي الامم ضد نصارى سورية وقد اشترك في هذه الجمعية ايضاً خورشيد باشا مشير ايالة صيدا لانه ارسل بالنيابة عنه احمد افندي الصيداوي المشهور بالفساد الّا انه بالحال وصل خبر هذه الجمعية بظروفها من احد ذواتها

الى قنصلاتو فرنسة الجنرال الكونت بنتيفوليو فكتب عن ذلك حالًا الى حكومته كما ولا بد ان قنصلاتو دمشق تكون فعلت ذلك. ومن دون ابطاء ابتدأت تظهر العلامات المؤكدة لما صار بهذا الاجتماع الردي لانه في ١٩ منه انوجد الخوري اثناسيوس نعوم رئيس دير عميق الروم الكاثوليك مقتولًا على مضجعه ومنهوبة موجوداته من اوضته من دراهم نقود وغير ذلك وقد تقرر ان القاتلين هم دروز من عزوة بشير بك نكد وقد فعلوا ذلك باذنه وهو الذي اخذ المال لان هذا المقتول كان متموّلًا. وانعرض امر ذلك الى الوالي وكان من جملة العارضين السيد طوبيا المومى اليه الذي ما تأخر قط عن ان يذكر الوالي ان هذا السبب هو من جملة الاسباب التي قال له عنها التي تعود الى حركات الفساد. اما الوالي فوعد بمسك القاتلين ولما لم يفعل الوالي شيئاً حضر احد مأمورين الدروز وتعهد للسيد المومى اليه انه هو يمسك القاتلين ان قلدته ذلك الحكومة وسيادته قرر هذا الخصوص الى قنصل جنرال فرنسة فالقنصل طالب من الوالي ان يقلّد هذا المأمور مسك القاتلين فلم يفعل. ثم بعد ذلك بمدة قليلة رجل درزي من عيناب قتل ظاهرًا وعمدًا على سكة كروسة الشام رجلًا نصرانيًا من العبادية واحتمى هذا القاتل عند الشيخ سعيد تاحوق الذي لم يشا ان يسلمه للحكومة بزعمه لاحد معتبري الفرنسيس انه غير جائز له دينًا ان يسلم قاتل للقتل. واما الحكومة فلم تجبره على ذلك. وفي ٢٦ نيسان توجه رجلان درزيان من بعقلين ودرزي ثالث من جهات حاصبيا الى خان محمد بك شبيب متوالي من اقليم الشومار وقتلوا فيه عمدًا وغدرًا نفرين وقطعوا يد ثالث وجرحوا الرابع وجميعهم نصارى من قيتولي التابعة اقليم جزين من مأمورية سعيد بك جنبلاط وانعرض بذلك الى الوالي فلم يسأل عن شيء لا هو ولا المأمور المذكور. ثم في ١٤ ايار انوجد قتيلان من دروز الشوف مقتولان بالقرب من صيدا وتقرر ان القاتلين من متاولة اقليم الشومار اخذًا بثأر ما فعله الدروز في خان محمد علي المومى اليه فدروز الشوف من مأمورية سعيد بك جنبلاط هاجوا وماجوا وفي ١٥ شهره شهروا بيارق الحرب وابتدوا بالتحوريب والحدو واطلاق البارود على سماع ومعاينة مأمورهم سعيد بك المومى اليه القريب منهم. وبمعرفته قتلوا بالوقت ذاته الخوري يوحنا

الخوري وبطرس الصايغ من بتدين اللقش وانطون ابراهيم الحجار من جزين وفرنسيس ميلان من القبع ومنعوا اهلهم من دفن جثثهم وربطوا الطريق على اهالي اقليم جزين وعلى اهالي دير القمر حتى لم يعد يمكن لاحد منهم الخروج خارجاً . وسعيد بك المأمور المار ذكره بعد ان انعرض له عن ذلك كله فليس فقط انه لم يسأل بل انه ارسل من قبله ايضاً قاسم يوسف حماده ربط طريق البحر من جهة صيدا بجمهور من الدروز والاسلام . وفي ٢٩ منه قتل دروز بشير بك نكد فارس خليل ابي سعيد من نصارى معلقة الدامور . وفي ٢٧ منه قتل دروز التينه الياس غنطوس من اوجه نصارى عبيه في بيته جهراً وعمداً بوجود المأمور نفسه في القرية المذكورة وبالنهار ذاته حرقوا دروز عرامون من مقاطعة قاتقام الدروز مزرعة عين درافيل التابعة الامرا اولاد الامير قعدان شهاب واتلفوا كلما فيها مع دود القز بعد ان نهبوها وكل ذلك انعرض على الوالي ودولته لم يسأل عن شيء . ثم اشتدت المضايقة على النصارى من كامل مقاطعجية جبة الدروز وعلى الخصوص من سعيد بك جنبلاط وخطار بك العماد وبشير بك نكد واخذوا ينزع السلاح من النصارى والذي لم يسلم سلاحه قتلوه والذي امكنه فرّ هارباً الى زحلة نهبوا بيته واحرقوه . فارتعبت من ذلك قلوب النصارى المختلطين لانهم شاهدوا الموت باعينهم وان الذي يسلم من الموت بالسيف يموت جوعاً . فحرروا الكتابات لاخوتهم النصارى الغير المختلطين ليتصرروا باستخلاصهم من هذه الحالة ومن الجملة حرر اهالي زحلة ودير القمر واقليم جزين الى سيادة المطران طوبيا المرمى اليه لكي يساعدهم امام الحكومة وامام قناصل جنالية الدول الفخيمة لكي تمكنهم النجاة من الموت . اما سيادته فجاوبهم محرّضاً اياهم على الابتعاد عن كل حركة فساد وان يكونوا متيقظين على انفسهم فقط وتوجه لدى الحكومة مرات متعددة يلتمس فيها ارسال عسكر الى جهة دير القمر والشوف ويفتح طريق بوجه النصارى ويرفع المضايقة عنهم لكيلا يهلكوا جوعاً .

ومثل ذلك قرر للقناصل وهم قرروا للوالي الذي كان يجاوبهم بالوعود الفارغة التي اعتاد عليها من دون ادنى عمل ما عدا تشديد للدروز وامدادهم بالقوة سراً . واما اهالي كسروان فلما بلغتهم اخبار اخوتهم الحاصلين عليها بهذا

الضيق حضر منهم نحو اربعماية نفر الى بعبدا عملة النصارى لاجل المكاشفة على اخوتهم فلما بلغ خبرهم الى الوالي امتلا غضباً ضد النصارى . وفي ٢٨ منه جمع اليه المجلس الكبير ومجلس التحقيق وبعض ذوات الاسلام واحضر ايضاً في هذا المجلس سيادة مطران بيروت المومى اليه وطلب من المجلس مضبطة في ضرب النصارى الحاضرين من كسروان فاعرض المطران لدولته بحضور هذا المجلس الحافل ان هؤلاء النصارى ليس لهم قصد ان يفتحوا حرباً مع الدروز بل قصدهم ان يدافعوا عن اخوتهم الذين صار عليهم غدر وانه هو يتعهد لدولته بمنع النصارى عن فتوح ادنى حرب بشرط ان دولته يهتم بمنع مضايقة الدروز عن النصارى وبارسال عسكر الى جهات دير القمر وجزين لفتح طريق للنصارى . فدولته وعد بذلك وكان وعده كوعوده السابقة . فسيادته حرر النصح المشدّد على نصارى كسروان لكي يرجعوا من بعبد الى الوراء ودولته اصدر امراً بهذا المعنى عن يد منصور افندي الشيان وامين رمضان . الّا ان دولته لم يتوقف عن الفعل بل انه في ثاني يوم الواقع في ٢٩ منه تحرك ركابه بالعساكر الشاهانية بالقيام الى محطة الحازمية الواقعة بالقرب من بعبدا ليكون هناك في وجه النصارى ويمنعهم عن مساعدة اخوتهم وترك الدروز بجراح مطلقاً ففي هذا النهار عند الضحى نزل دروز كفرنبرخ وعلى روسهم مشايخهم بيت عماد واحرقوا مزرعة معاصر بيت الدين بما فيها من درد القز بعد ان نهبوها وبقيت دروز العرقوب مع دروز الجرد وعلى روسهم خطار بك العماد ومشايخ بيت عبد الملك توجهوا الى قب الياس وفتحوا حرباً مع اهالي زحلة وانتهوا الى ضهر البيدر . وعند المساء اجتمع دروز المبيدية وبقية دروز المتن الى بيت مري وفتحوا مع دروزها حرباً على نصاراها بتحريك ابراهيم آغا محافظ المحل بامر الوالي وهو مع عسكره الموظف كان البادي باشارة الحرب والحريق واول محل احرقه هو دار الامير سعيد الذي كان مشتاتاً له . وعند ذلك صارت المقابلة من النصارى باحراق محلات الدروز . وفي صباح اليوم الثاني الواقع في ٣٠ منه رجع انفار كسروان من بعبدا امتثالاً لامر دولته وبنصح وانذار سيادة المطران طوبيا وكان ذلك بمشاهدة دولته لوجوده بالقرب . وصار التطمين من دولته لاهالي بعبدا وبقيت

اهالي الساحل فتوجهوا لاشغالهم آمنين. واذ ذاك بعد مرور ساعتين وثبت عليهم الدروز باشارة من دولته وقائمقام الدروز ورجال مقاطعته من جهة الحدث والشيخ حسين تلحوق واقاربه ورجاله من جهة الوادي والشيخ محمود تلحوق واخوه ورجالها من جهة بعبدا . واثاروا الحرب واشترك معهم العسكر الموظف بالقتل والنهب والحريق وتمزيق الايقونات واحتقار الاديرة والكنائس وكل ذلك تحت نظر دولته القريب جدًا من هذه الفظائع ولم يأنف أنفه من اشتمام رائحة الدخان الذي غطاه وغطى عسكره مدة النهار كله حتى الى المساء وبمعاينة جميع قناصل الدول وكافة الاوربايين وسائر سكان بيروت الذين غطاهم الدخان ايضاً . وكانوا ناظرين خراب هذه المقاطعة الواسعة الفخيمة بفعل الوالي دون كل شبهة الذي بعد ان انتهى من عمله هذا الفظيع جمع اليه مساء قائمقام ومقاطعجية جبة الدروز وشكرهم على عملهم متهللًا مسرورًا واجتمع معهم سرًا وارشدهم الى اتمام العمل واصرفهم . وفي غد ذلك اليوم توجه دولته لمقابلة قناصل الدول الخمس وطلبوا منه توقيف الحرب ومنع هذا الفتك الشنيع اما هو فجاوب بالايجاب واتخذ على ذاته عهد توقيف الدروز وهم تعهدوا بتوقيف النصارى ورجوعهم الى بيروت واتخاذهم قول دولته بحمل الصدق وقد اتخذوا هم سيادة المطران طوبيا المومى اليه مساعدًا لهم في توقيف النصارى المجتمعين للمداولة مع اخوتهم بان يقفوا بارضهم ولا يتقدموا نحو المحاربة ولا خطوة واحدة . ثم توجه سيادة المومى اليه بذاته الى محل الاجتماع وصار توقيف النصارى عن التقدم وجميعهم امتثلوا ولم يتقدم منهم احدًا الى أدنى محاربة حتى الى نهاية حرب الدروز مع النصارى المختلطين . وهذا الامر ظاهر وهو كلي الصدق خالٍ من ادنى ريب وما ذلك الّا لاخذ النصارى قول دولته بحمل الصدق واعتبارهم نصائح جناب القناصل وسيادة المومى اليه . اما الدروز فما وقفوا عند هذه الحدود بل في هذا النهار ذاته جمع خطار بك العماد والمشايخ بيت عبد الملك وغيرهم دروز العرقوب والجرد وغيرهم واثاروا حربًا على نصارى المتن مبتدئين من حمانا وفالوغا وكل جورة المتن وكل مقاطعة المتن ونهبوها مع الاديرة والكنايس والمدارس واحرقوا جميعها ومزقوا الايقونات . وفي ٣١ منه غدر قائمقام الدروز برجال الشويفات

محل حكومته بالنصارى الحاضرين من مطلقة الدامور والدبيه تحت محافظته بتوصية الوالي له ولذلك عند وصولهم ليلاً مقابل الشويفات فذبح منهم نحو اربعين نفراً وجرح البقية من رجال ونساء وبنين واغتنم موجوداتهم . وهكذا اخذ الدروز بمحاربة دير القمر واقليم جزين ثم كامل محلات النصارى مع زحلة ومشهور ما فعل العسكر مع طاهر باشا في ملحمة دير القمر وبتدين وما فعله العسكر والدروز في ملحمة حاصبيا لحد ٢٢ حزيران وما فعله احمد باشا وعسكره واسلام الشام مع نصاراها من القتل والنهب والسبي وانتهاك العرض والحريق من ٩ تموز الى ١٤ منه . وما جرى قبل ذلك بنصارى القرى المجاورة الشام من مثل هذه القبائح وزيد عليها اكراه جميع نصارى احدى القرى مع خوريهم على دين الاسلام وهم نصارى روم كاثوليك . وفي كل هذه المواقع كان القناصل دفعات متعددة يطلبون من دولته توقف الحرب والفتك وهو كان يسددهم مواعيد فارغة الى ان تم كل مقاصده بالنصارى وانتهى الامر بالحكم على نصراني بري من قانقام مشير صيدا وفتك بالبري في نفس بيروت ايجاباً لشهوة اسلامها الذين هاجوا وماجوا وطلبوا ذلك بدلاً من مسلم قتله احد الاسلام . فمن هذه التصرفات غناية للقاري المنصف العادل اذ يفتي ببراءة الموارنة واكليروسهم من هذه التهمة الشنيعة لاسيما مطران بيروت الذي انتهبت كرسيه مع كنيسته (في عين سعادة) وتمزقت ايقوناتها الشريفة الفاخرة وسلبت كل موجوداته التي لا تنقص قيمتها عن مائة وعشرين الف فرنك وكلها كانت منظورة من خورشيد باشا الذي شرف الى كرسيه ونظر اتقانه وكثير من القناصل والذوات الاوربايين المتبرين الذين زاروا هذا الكرسي وشاهدوا ما به من التحف والاثاث التي لم يسبق المطران الومى اليه ان نقل شيئاً منها فلو كان قصده المحاربة كما يتهمه زوراً وظلماً ذوو الاغراض المنحرفة اغاياتهم الخصوصية أما كان سبق ونقل من كرسيه اقلها يكون الاشياء الثمينة ووضعها في محل السلامة . فمن هذه المبادي التاريخية الكلية الصدق تظهر براءة الموارنة واكليروسهم واخصه المطران طوبيا ويتضح كذب هذه التهمة لهم ونسبتها حقيقة لغيرهم ١ من كيفية بداية هذه الحركات . ٢ من تصرفات الحكومة المار ذكرها . ٣ من اشتراك كل الامم بهذه الحروب

ضد النصارى من اسلام وعربان واكراد ومتوالي ودروز . ٤ من بداية هذه الحروب اولًا في حاصبيا واخيرًا في الشام حيثما الموارنة هم اقلّ عددًا . ٥ من توقف النصارى الغير المختلطين عن التقدم الى المدافعة بعد اجتماعهم اخذًا بتعهد الوالي واعتبارًا لنصح المطران المومى اليه عن رأي القناصل حتى تمكنت الامم من اخوتهم النصارى المختلطين وصيروهم ملحمة . اخيرًا من معنى التحرير المقدم من المطران طوبيا الى القناصل الخمس الجنرالية وهم انكلترة وبروسية واوستريا (النمسة) وفرنسة وروسية في ٥ حزيران سنة ١٨٦٠ وهذه صورته :

انه في مواجهتنا التي صارت مع سعادتكم بموجب استدعائكم وذلك بعد مقابلتكم مع دولة المشير المعظم في سحرا الحازمية قد فهمنا من نفس سعادتكم كمن فم واحد ان نتيجة مذاكرات سعادتكم مع دولته في المواجهة المشار اليها هو ان دولته من صميم رحمته اتخذ على ذاته الشريفة توقيف طائفة الدروز عن التقدم الى المحاربة من جديد وعن القتل والسلب والتلف وحريق الاماكن وكأف سعادتكم توقيف النصارى عند هذه الحدود لكي يصير فيما بعد عقد صلح واصلاح ما مضى بموجب القوانين العادلة الموصلة لكل ذي حقّ حقه والمانحة الرواحة والاستراحة . ومن ثم طلبتم منا بكل صراحة قوية وتحيز وثيق ان نبرز كامل اهتمامنا لكي يكون النصارى بمتثلين اوامر دولته هذه الآيلة لخير العموم وموافقين لنيته الصالحة المساعدة على حجب سفك دمّ العباد والوقوف عن التقدم الى خراب البلاد وبما ان هذه النتيجة هي كلية الجودة والحسن فلا يعاندوها الّا كل من كان شيطانًا ماردًا او مجنونًا فلذلك قد اوضحنا لسعادتكم بالكفاية حاساتنا المتألمة مما جرى من الحروب والخراب الماضي . وكيف ان هذه النتيجة وجدت محبوبة منا وكيف وعدنا سعادتكم وحققنا لكم اننا نبذل جهدنا ونفرغ جدنا لكي نجعل النصارى واقفين عند هذه الحدود وان جماهيرهم المتجمعة في محلات مختلفة نهتم بالّا تدعها ان تتقدم خطوة واحدة بهيئة حرب وتممنا ذلك فعلًا بارسال كتاباتنا المشدّدة لكل الجهات ومع كون الدروز كانوا غدروا بالنصارى واستظهروا عليهم في المحاربة بجهتي المتن وساحل بيروت لاضرامهم حربًا ذريعة كانوا اضمروها بينما كانت النصارى غير قاصدين اليها

« كما كنا عرضنا لدولته مقدماً » وقد عظمت بذلك ضربة النصارى وصاروا مجبورين من قبل الحق الطبيعي والمدني ان يدافعوا ويحاموا عن انفسهم وموجوداتهم . وقد كانوا استحضروا على القوات الكافية لهذا الخصوص الجائزة لهم قانوناً ان يبرزوها . ومع ذلك لما بلغت اليهم كتاباتنا المحكي فيها عن الامر الكريم المشيري وعن افادات سعادتكم توقفوا حالاً من ذلك الحين ولم يتقدموا خطوة واحدة نحو المحاربة ولو بوجه المدافعة كما هو ظاهر وبهذا اعطوا برهاناً قوياً على حسن طاعتهم لكم واحترامهم اوامر دولته ورأي سعادتكم بخلاف الدروز الذين بعد ما اتخذ دولته توقيفهم على ذاته الشريفة قد اهانوا اوامره الكريمة وفتحوا حرباً ذريعة على دير القمر وحرقوا محلات كثيرة من اطرافها وفتحوا حرباً على جزين وكامل اقليمها وقتلوا كل من وقع في يدهم من الرجال والنساء والاطفال ثم ومن الكهنة والرهبان والراهبات واستظهروا عليها واحرقوها وشتتوا اهلها وفعلوا كذلك في الاديار والكنائس . ثم نهبوا وحرقوا محلات النصارى الخالية من السكان في الشوف والمرقوب وغربي البقاع والمتن والجرود والشحار والمتن من ذاك الحين الى يوم تاريخه دون توقف وها هوذا الحريق منظور في شويًا والعادية بالقرب من محطة ركاب دولته وربما ان ذلك منظور منهُ .

فن يمكنه ان يحتمل هذا التفاوت من الدروز بالجرأة التي تنفر منها طبيعة الانسان وعدم اهابتهم اوامر دولته غير مبالين من هذا النظر العام الذي يشهرهم ويجعلهم مجرمين هذه الجرائم الفظيعة ليس فقط امام دولته وامام سعادتكم بل امام الخاص والعام ومع ذلك لم يقفوا عند هذا الحد . ومع هذا كله فنحن موافقة لرأي البعض من سعادتكم متوجهون الان بذاتنا لكي نكمل شفاهاً ما ابتدأناه كتابة بتوقيف جماهير النصارى عند هذه الحدود وان لا يتقدموا خطوة واحدة بهيئة حرب . ويمكننا ان نؤكد لسعادتكم بكلمة الشرف التي لها فوق القسم انهُ كما ان عدم المحاربة هو رأينا من الابتداء هكذا الان نفرغ جهدنا بالوقوف عند هذا الحد وان كنا نتعهد بعدم التفاوت بهِ ان يرجع الدروز عن جرأتهم الظاهرة بالحاضر . الّا انهم اذا بقوا على ما هم عليه

من القباحات والنهب والحريق فلا اكون مسئولًا عن مجاوبة النصارى ومدافعتهم القوة بالقوة التي هي بالحاضر اشد كثيرًا لان امر العذاب يؤذن بخرق الحجاب. الّا اننا نتأمل من معدلة دولة افندينا المشير المعظم توقيف هؤلاء البغاة عن بغيهم بحسن مساعي سعادتكم ويكفينا شر الزيادة وادام الله مدة بقائكم . في ٥ حزيران سنة ١٨٦٠ — الداعي لسعادتكم طوبيا عون مطران بيروت.

ان الجزالية المشار اليهم بعد اطلاعهم على هذا التحرير واعتبارهم موافقته الكلية الصدق قرروا باجتماعهم سوية ان يتوجهوا جملة لدولة الوالي وخاطبوه بمعناه طالبين منهُ الوقوف عند تعهده اما هو فقد وعدهم بمواعيده الفارغة حسب عادته وانصرفوا. فليعتبر القارىء قائلًا: يا للعجب من الغرض البشري المنحرف لعمري ان هذه التهمة جسيمة ولو وجدت صحيحة لما امكن اوليك المنصفون القابضون بايديهم ميزان العدل ان يضربوا صفحاً عن تهمة مثل هذه سببت قتل نفوس لا يحصى عددها واهلاك اموال لا تستقصى بل كان مقتضى العدل ان يصير احقاق الحق ومجازاة كل بعمله الّا انه ما من احد كبيرًا ام صغيرًا تجاسر وتكلم رسميًا ضد الاكليروس الماروني وضد مطران بيروت المشار اليه بهذه التهمة بل يوشي بتدبر ما يمكنه بالسر واضعاً ذلك باذن الذين يرغبون سماع مثل هذه الاقاويل الكاذبة ضد من ذكر ليقصروا مساعيهم عن محاماة شبيهم وجنسيتهم اذ بذلك يفوز اولو الاغراض الذاتية بنوال اغراضهم لانهُ امر موكد لا ريب فيه لو وجد من يتجاسر باقامة هذه الدعوى على السيد المشار اليه وباقي الاكليروس لكان في المحاكمة يظهر محقوقاً بل مفضوحاً هو وغيره من الذين حرّكوه الى هذه الافعال القظيعة فيجري بحقه في المحاكمة قانون الجزاء العادل. الّا انهُ لو صمتت خصام الاكليروس المومى اليه عن المدعاة لفروغ دعواهم من الصحة فهم اي الموارنة لا يصمتون عما لهم من الدعاوى الصحيحة التي لا بد من اظهارها صحيحها فعلًا لدى المحاكم لان الحق واحد لا يتجزأ وما اكثر ما يهم الاكليروس الماروني المحافظة على صيتهِ وشرفهِ وخصوصاً امام دولة عادلة كدولة انكلترة الفخيمة ووزيرها الشريف المشار اليه.

وليعلم القارئ الامر المعلوم لدى العالم بان الشعب الماروني لهُ تعليق قديم

وشديد مع فرنسة بهذا المقدار حتى ان اعظم المصاعب والاهوال لا تقوى على ان تحلّ اوتاره ومعلوم ايضاً ان سلسلة هـذا التعلق هي تحت محافظة ايـدي الاكليروس الماروني وذلك لموضع الحب القديم على هـذا الشعب واكليروسه بواسطة محاماتهم الدائمة دون انقطاع. فلعل هذا هو اولاً من جملة الاسباب التي حملت الوشاة ان ينقلوا هذه التهمة الكاذبة ضد الموارنـة واكليروسهم لوزير انكلترة المشار اليـه . والحال ان فعل الموارنة هذا هو رد الشكر وعـدم الكفران بالجميل فما من منصف حكيم نظير هذا الشريف يقاوم فعلاً حميـداً ليظهر فعل الموارنة هذا. او لعل ثانياً ان مقاومة الاكليروس المـاروني الشيعة البيليشية (١ الاميركانية من عام ١٨٢٣ لحد الآن وارجاعها بالصوت الرعائي عن الامتداد في جبل لبنان ومنعها عن بثّ عقيدتها بين الشعب الماروني ولكن ان هذه الشيعة نَعَم انها دخلت جبل لبنان تحت حماية انكلترا الّا ان هذا الامر هو ملاحظة العقائد التي هي من حقوق الاكليروس الطبيعيـة وغير متعلق في الامور البوليتيكا (اي السياسة) التي تكلم بها الوزير المومى اليه ومن ثم لا يليق بعدالته ان يواخذ الاكليروس الماروني على ذلك . او لعلّ ثالثاً عدم قبول المرحوم السيد يوسف حبيش بطريرك الموارنـة بمدرسة عين ورقـة الرجلين الانكليزيين وذلك في اوائل حكم المصريين في سورية بموجب امر خديوي مصر وامر الامير بشير حـاكم جبل لبنان . فهذا الصد من البطريرك المشار اليه مؤسس على حجج عادلـة فاذاً ليست عادلة المواخذة على ذلك دون معرفـة السبب. او لعلّ رابعاً واخيراً : ما كتبه الكولونل روز بمـدة وجوده قنصل جنرال انكلترة في بيروت متشكياً ضد مطران بيروت المومى اليـه الى وزير دولتـه والى السفارة في اسلامبول هو السبب لعـدم رضا الوزير المرقوم عن الاكليروس الماروني. الّا ان ما كتبه الكولونل المذكور وبقية قناصل انكلترة هو مـلاحظ الامور البوليتيكا التي كان يعلم مطران بيروت المومى اليـه ان القناصل المومى اليهم مغشوشون بها من طرف الدولة العثمانية ولذلـك مطران بيروت المشار اليه ما امكنه ان يوافقهم على هذا الغش ضد وطنه . وها هوذا

(١ البيليشية : يريد بها الكاتب الشيعة البروتستانية

الآن قد ظهر انفشاشهم ببراهين ساطعة ومن ذلك ينتج واضحاً ان الطران المومى اليه غير مؤاخذ بمضادته هذه البوليتيكا الضارة في وطنه ومع هذا فالكولونل المومى اليه نفسه ومن خلفه في كونسلاتو انكلترة في بيروت ما انكروا ولا ينكروا حسن استقامة وتصرفات الطران المومى اليه كما يتضح هذا من المكاتبة المذكورة المطبوعة . .

ولذلك فنؤمل من سعادة الوزير المشار اليه ان يغير حكمه وفكره ويصلح نيته من نحو الاكليروس الماروني عموماً وخصوصاً ويتخذ هذه البرهانات القاطعة حجج راهنة ببراءة الاكليروس المذكور من هذه التهمة الكاذبة ويتم من ثم الى اجابة اصوات شعب انكلترة الذي التمس منهُ دفعات متعددة ان يبادر للأخذ بثارات النصارى في سوريا ويخولهم راحتهم وامنيتهم في المستقبل مقتنماً بما مضى من عكس تصرفات الحكومة العثمانية وادخالها الغش على دولته الفخيمة وباقي دول اوروبا متوقعاً الجازاة من العلي من يجازي كلًا لعمله لاسيما بعد ان يسمع حلول القضاء العادل من جديد على احمد باشا سر عسكر سابق وعلى غيره من ضباط الحكومة العسكرية ونفوذ الحكم بقتلهم وسيحل ايضاً هذا الحكم بغيرهم مثل خورشيد باشا وطاهر باشا وغيرهم ومن ذلك يتأكد ان هؤلاء هم علة ملحمة سوريا الحاضرة لا الاكليروس الماروني المظلوم.

في ١٨ ايلول سنة ١٨٦٠

جولة في كسروان

لحضرة القس انطونيوس شبلي اللبناني

٤ دير مار ضومط فيترون

كتب خزانة الخطية (تابع)

١١ : قلائد الياقوت في واجبات الكهنوت (طبع بالمطبعة الكاثوليكية في بيروت) للبادري بطرس فروماج اليسوعي . خطهُ بالعربي القس جرجس بن حنانيا من طائفة الروم في ايام الطاعون في ١٢ حزيران سنة ١٧٣٣ وقد وقفهُ